الظاهرة الاستعمارية من منظور مالك بن نبي

أ. الطاهر سعود

جامعة فرحات عباس – سطيف

شغلت الظاهرة الاستعمارية حيزا مهما في كتابات مالك بن نبي وإسهاماته الفكرية المختلفة؛ حيث قدم حولها آراء وتحليلات متميزة. هذه الإسهامات –التي سنحاول في مقالنا هذا أن نخصها بمزيد عناية واهتمام– هي خلاصة تجربة ومعاناة عايشها مالك بن نبي كواحد من أبناء المستعمرات. وهي قبل أن تكون تصورات نظرية قدمها عقل مفكر، تشكل شهادة تضمنت الكثير من الملاحظات والأفكار التي تعكس جوانب الحضور الاستعماري في بلاد كانت هدفا للاستعمار طيلة قرن ونصف.

وإذا كانت جهود البعض (فعاليات الحركة الوطنية...) قد سلكت في تعاملها مع الظاهرة الاستعمارية مسلك التعامل السياسي، فإن مالك بن نبي قد تعدى ذلك ليتعمق في فهمها، ويتعامل معها من منطلق المفكر الذي يرقب الظاهرة ويحول معاناته منها إلى فعل معرفي يغوص في أعماقها، ويبين سبل الخلاص منها.[1]

ورغم أنه يصدر في مسلكه العلمي في دراسته للاستعمار عن تجربة، فليس معنى هذا إضفاء لطابع الذاتية على ظاهرة ينبغي أن تدرس دراسة موضوعية، فهو ما انفك يدعو إلى:

- ضرورة أن نبحث الاستعمار كظاهرة بحثا علميا.

---

[1] الطاهر سعود، "مالك بن نبي والثورة الجزائرية، التحليل والموقف"، الملتقى الدولي السابع ، الجزائر في نصف قرن (1954-2004) الأعمال التاريخية والفلسفية والأدبية المنجزة حول الثورة التحريرية وثورة البناء والتشييد، أيام 08/07/06 ديسمبر 2004، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة.

- وأن نتبع المقياس الصحيح في ذلك؛ أي بأن نتتبع أصول الاستعمار في أعماق التاريخ.
- وأن يتوسع هذا البحث ليتجاوز دراسة حالة خاصة هي الحالة الجزائرية، إلى دراسته بشكل كلي؛ أي دراسة "علاقات الحضارة الغربية بالإنسانية منذ أربعة قرون"[2].

وقد تجسدت دعوة مالك بن نبي هذه في العديد من إنتاجاته؛ حيث نراه يحلل الظاهرة الاستعمارية عبر المحاور التالية: الأصول التاريخية للحركة الاستعمارية، وأشكالها، ودورها، وكيفية إدارة الاستعمار لعمليات الصراع الفكري.

الأصول التاريخية للحركة الاستعمارية

يرى مالك بن نبي أن حركة التوسع الأوروبي التي انطلقت بعد عصر النهضة كانت الترجمة الواقعية للثقافة الغربية التي ما انفكت تغذي طموح الإنسان الأوروبي وتزرع في نفسيته الشعور بالأناقة والتفوق العنصري على غيره من الأجناس، برز ذلك جليا في الثقافة الشفوية التي كان يتشربها، من خلال أحاديث السمر التي تحكي عن منطقة كنوز خيالية في الإلدورادوس والقوم جلوس حول المدفأة[3]، فاندفع الإنسان الأوروبي وهو يستبطن هذا الوعي في موجات بشرية على كافة قارات العالم القديمة، والعالم الجديد بعدما حققته الكشوفات الجغرافية التي وقعها كريستوف كولمب.

إن هذه الحملة التوسعية هي تجديد لصلة الأوربي مع ذاته بوصفه مستعمِرا، وعودة بأصوله إلى روما؛ حيث وضعت المدينة الرومانية طابعها في سجل التاريخ، فالمدنية الحديثة – كما يؤكد مالك بن نبي– أخذت من الحضارة الأوروبية روحها الاستعمارية. وهو يقدر بصورة تقريبية الأصول البعيدة للنزعة الاستعمارية، بالعهد الروماني الذي كانت فيه الحروب الفينيقية تعبر عن تلك الكلمة المأثورة التي كان يرددها "كاتون" في كل مناسبة "لابد أن

---

[2] مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، دت. ص 184.

[3] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 3، دمشق، دار الفكر، 1986، ص47.

تحطم قرطاجة" فهذه الحروب تعد في نظره إرهاصا للحروب الاستعمارية[4] التي عرفتها الإنسانية في تاريخها الحديث*.

أشكال الاستعمار

يميز مالك بن نبي في دراسته للظاهرة الاستعمارية بين أشكال مختلفة للاستعمار، فهو يرى أنه عندما ينزل جيش أجنبي على أرض شعب ما فإن هذا الشعب يكون معرضا إما إلى احتلال مؤقت أو إلى عملية ضم نهائية تحت سلطة شعب آخر. فأما الاحتلال المؤقت فإن تأثيراته على الحياة تكتسي صفة عابرة في حدود ما يستلزمه هذا الإنزال، وينتهي نفوذه مع تصفية الوضع الحربي. أما في عملية الضم فإن الأمور تتخذ مسلكا آخر يؤثر في حياة الشعب الذي جرت عليه هذه العملية، مما يقود في النهاية إلى ميلاد مجتمع جديد...تندمج فيه خصائص الشعبين (الغالب والمغلوب). ويرى مالك بن نبي بأنه ليس شرطا أن تكون خصائص الغالب هي السائدة، بل قد تكون حياته مطبوعة بخصائص المغلوب، وقد يكون التأثير متبادلا. ويضرب مثالا على هذه العملية التاريخية بالشعوب التي اكتسحت الصين من قبائل المانشو والمغول، فقد انطبعت رغم غلبتها بمعالم الحضارة الصينية، ومثالا آخر على الاندماج يتساوى فيها الغالب والمغلوب، ويتمتعان في النهاية بالحقوق نفسها.

لكن هناك وجهة ثالثة قد تؤول إليها عملية الضم هي الاستعمار ذاته[5]. والتي تتخذ هي الأخرى شكلين أساسين[6]:

---

[4] مالك بن نبي، في مهب المعركة، إرهاصات الثورة، دمشق، دار الفكر، 2000، ص 25.

* كانت السيطرة الحضارية للإمبراطورية القرطاجية عامة على الحوض الغربي للمتوسط قبل أن تسقط نهائيا تحت ضربات روما بعد ثلاث حروب كبرى سميت في التاريخ بالحروب البونيقية. وقد ساهمت قرطاجة بدور حضاري كبير في الشمال الإفريقي بعد أن تحولت من مدينة للتجار الفينيقيين القادمين من صور وصيدا إلى إمبراطورية وقوة حضارية عظمى، لكنها حطمت في النهاية و أحرقت عاصمة هذه الحضارة "قرطاج" بشكل مأساوي على يد الرومان بعد تحالفهم مع بعض ملوك الشمال الإفريقي البربر.

[5] المرجع نفسه، ص ص 40-39.

[6] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 108.

الاستعمار الاستبدادي

ويظهر في حياة الإنسان والمجتمع في صورة محسة وأعمال سالبة تهدف إلى طمس قيم الفرد وإمكاناته من خلال تدخل المستعمر في جميع تفاصيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية...وحتى الدينية. وقد كان لهذا النوع من الاستعمار سنده العلمي ممثلا في تلك المجامع العلمية التي تبنته وقامت على دراسته وتوجيهه، كمدرسة العلوم الاستعمارية بباريس.

إن المستعمِر في هذا الشكل الاستعماري يحيط بحياة البلاد المستعمَرة من كل جوانبها، ويوجهها توجيها لا يغفل أتفه الظروف وأدق التفاصيل. أما عن نموذجه في العصر الحديث فهو الاستعمار الذي تعرضت له شعوب شمال إفريقيا.

الاستعمار المتحفظ

يختلف هذا الشكل من الاستعمار عن سابقه في مرونته وعدم تدخله مباشرة في نواحي حياة المستعمَر، فهو يطلق له أنواعا من الحريات، ويمكن أن نمثل له ببعض أشكال الحماية التي عرفتها بعض بلدان العالم.

أما إذا أخذنا مؤشر القابلية للاستعمار (Colonisabilité) فإن مالك بن نبي يميز في هذا الإطار بين[7] بلد مغزو محتل وبين بلد مستعمر.

في حالة الغزو أو الاحتلال: في هذه الحالة يوجد تركيب سابق للإنسان والتراب والوقت، وهذا الوضع يستتبع فردا غير قابل للاستعمار، ويمثل ابن نبي لهذه الحالة باليونان القديمة عندما غزتها روما، وأيرلندا الخاضعة دونما استسلام للاحتلال الإنجليزي، فالغلبة هنا هي غلبة عسكرية وليست غلبة حضارية.

في حالة الاستعمار: أما في هذه الحالة فإن البيئة الاجتماعية بكل أبعادها تدل على قابلية الفرد المنتمي لها للاستعمار، لأن هناك حركة تاريخية تسبق الاستعمار وهي التي تدعوه. فالكيان الحضاري الذي أفرز في النهاية هذه البيئة الاجتماعية يتهاوى عندما تفقد القيم الروحية والفضائل الخلقية تأثيرها باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارات؛ حيث تتوالى

---

[7] المرجع نفسه،ص 93.

النكسات الاجتماعية وطوارئ التاريخ حتى يفقد هذا الفرد همته وتتحرر غرائزه وتتفسخ شبكة المجتمع العلائقية، وتتجمع الأمراض النفسية والاجتماعية فتقود المجتمع إلى حالة من العجز والمرض والسلبية والجمود هي ما يطلق عليه مالك بن نبي القابلية للاستعمار، ففي هذه الحالة يصبح الاستعمار حتمية وضرورة تاريخية*.

دور الاستعمار

تتجه كثير من الكتابات التي تناولت الظاهرة الاستعمارية بالدراسة والتحليل، إلى تأكيد الجانب السلبي الذي يمارسه الاستعمار على الشعوب التي يفد إليها، غير أن ما قدمه مالك بن نبي هنا يبدو متميزا؛ حيث نراه يهتم بإبراز جانبين أساسين: الجانب الإيجابي في الظاهرة الاستعمارية (الدور التحفيزي)، والجانب السلبي أو ما يطلق عليه المعامل الاستعماري (الدور التعطيلي).

الدور التحفيزي

يؤكد مالك بن نبي هنا على أنه لكي نصدر حكما دقيقا حول الظاهرة الاستعمارية يجب أن ننظر إليها لا بوصفنا رجال سياسة، ولكن بوصفنا علماء اجتماع، فاستقراء تاريخ الاستعمار يبين أنه يدخل في حياة الشعب المستعمَر بصفته عاملا مناقضا يعينه على التغلب على قابليته له، حتى أن هذه القابلية التي يقوم على أساسها الاستعمار، تنقلب إلى رفض لذاتها في ضمير المستعمر فيحاول جهده التخلص منها[8].

لقد لعب الاستعمار منذ ما يزيد عن القرنين دورا نافعا في تاريخ الشعوب المتخلفة، عندما خلع عليها باها وزعزع دارها وأنقذها من فوضى القوى الخفية التي بقيت سادرة فيها طيلة عقود طويلة. ومالك بن نبي يشبه الدور الإيجابي الذي لعبه الاستعمار اتجاه الشعوب

---

* يشابه تأكيد ابن نبي هنا مع ما قرره ابن خلدون في دراساته حول أعمار الدولة حينما قال"...ولا تعدو الدولة في الغالب هذا العمر (أي 120 سنة أو ثلاثة أجيال) بتقريب قبله أو بعده، إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، فيكون الهرم حاصلا مستوليا والطالب لم يحضرها ولو قد جاء الطالب لها وجد مدافعا"؛ أي أن القابلية للاستعمار موجودة حتى وإن لم يحضر المستعمر، أنظر: عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ط7 . بيروت: دار القلم، 1989، ص 171.

[8] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي ، ص 94.

التي وقد عليها (العالم الإسلامي مثلا) بالديناميت الذي نسف معسكر الصمت والأحلام الذي بقي فيه إنسان ما بعد الموحدين كائنا أميبيا متبطلا، فشعر كما شعر بوذي الصين وبرهمي الهند بهزة ألهمته قيمة اجتماعية جديدة، حين حرر طاقته التي طال عليها زمن الخمود[9].

بل إن الجهود التحضيرية والإصلاحية والتجديدية التي انطلقت في البلاد المستعمرة ترجع حسب مالك بن نبي إلى هذا الدور اللاشعوري الذي مارسه الاستعمار، فقد أعان هذه الشعوب على التغلب على قابليتها له دون أن يقصد إلى ذلك؛ حيث يقول" إن المشروع الاستعماري بصرف النظر عن الاعتبارات الأخلاقية لا يخلو من فائدة إنسانية في نهاية الحساب فقد سجل بالنسبة للمستعمَر نفسه نقطة الانطلاق في تغيير حياته وتحريرها، ويمكننا أن نقيس أثر ذلك في حالة اليابان، التي دخت فعلا في التاريخ الحديث منذ الإنذار الذي وجهه إليها الكومودور بيري عام 1868[*]. ولقد أحدث المشروع الاستعماري بصفة عامة صدمة نفسية، حددت موجة التاريخ في آسيا وإفريقيا حين وضع (أبناء المستعمرات) على طريق الحضارة الحديثة"[10].

الدور التعطيلي

يعتبر مالك بن نبي الاستعمار من الوجهة التاريخية نكسة في التاريخ الإنساني، وأنه عندما يفد إلى بلاد معينة فلا يعني أنه يأتي ليحركها ويقضي على ضروب التخلف فيها،

---

[9] المرجع نفسه، ص47؛ وأيضا: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص149.

[*] إن النشاط التبشيري جعل الحكام اليابانيين يدركون خطره، فعمدوا إلى منع دخول الأجانب ما عدا التجار الهولنديين والصينيين الذين تحدد إقامتهم في جزيرة قرب ناكازاكي؛ حيث بقيت حلقة الاتصال الوحيدة مع العالم الخارجي طوال قرنين من الزمان، وفي 1854 وبضغط من الولايات المتحدة والدول الأوروبية، قاد الكومودور الأمريكي بيري أسطولا عسكريا فتح بالقوة ميناءين يابانيين، وبعد سنوات وجدت اليابان نفسها مفتوحة على كل البلدان، وقبل هذا التاريخ وحتى سنة 1868 وهي السنة التي يبدأ فيها العصر الميجي، كانت اليابان تتخذ سياسة منغلقة موجبها الامتناع عن الحوار مع العالم الخارجي، وبعد ضغط الكومودور بيري، انطلقت حركة الحداثة في اليابان تحت شعار" الحقوا بالغرب واسبقوه، والروح اليابانية والتكنولوجيا الغربية".

[10] مالك بن نبي، فكرة الأفروآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 3. الجزائر، دار الفكر، 1993، ص 49.

انطلاقا من فكرة الرسالة التحضيرية أو الدور المحضر (Le rôle civilisateur) للشعوب الوحشية التي كان يحملها كشعار، وإنما يجيء لاستغلالها واستنزافها والتوسع على حسابها.

إن الدور السلبي الذي يمارسه الاستعمار على الشعوب المستعمرة يخضع لما يسميه ابن نبي المعامل الاستعماري Coefficient، الذي يطبقه على حياة الأفراد وفق سياسة مدروسة تكفل له وجود مستعمرين ضيع فيهم الجوهر، وحطم فيهم معاني الإنسانية، وزرع فيهم الشعور بالنقص وحطم قواهم الكامنة، وقلل من قيمتهم، ومنع المستعمَر من الأشياء التي تغذي جسمه وتنمي فكره، ووضع في وجهه الحواجز حتى يغدو كائنا مشوها في إنسانيته[11].

لقد حاول مالك بن نبي تقصي مظاهر هذا المعامل في حياة الإنسان المستعمَر بكافة أبعادها:

في الميدان الاجتماعي

حينما يسعى الاستعمار إلى تثبيت مظاهر التخلف والانحطاط؛ ببعث العادات الراكدة، وإحياء التقاليد المنبوذة، وإشاعة الانحراف والتلويث الأخلاقي الذي يحط من قيمة الفرد وكرامته. فالمستعمر يصفي كل جهد فردي أو جماعي يكفل للمستعمَر أن يصلح نفسه وأن يصلح بيئته، فيبقى المجتمع أسير تخلفه، ويبقى الشعب محاصرا داخل دائرة مصطنعة يساعد كل تفصيل فيها على تزييف وجود الأفراد والحط من قيمتهم[12].

في الميدان الفكري والتربوي

إن الاستعمار يضيق على الحياة الفكرية لأنه يدرك أهميتها في إطلاق طاقات الإنسان الكامنة، وبالتالي فهو يحجر عليها حتى يؤمن وجوده. فهو يتدخل في حياة الفرد طفلا عندما يحرمه الأسباب التي تضمن نموه الطبيعي، وإذا كتب له النجاة وتهيأ له أن يجد مقعدا في مدرسة، فكم من العراقيل توضع في طريقه، ممتحنون بلا انتصاف وحكام بلا شفقة ومؤامرات تسعى لأن تبقيه مستعمرا حقيرا، وإذا نجا من كل هذه الحواجز وحصل على

[11] محمد عبد السلام الجفاري، " مفاهيم أساسية في فكرة مالك بن نبي"، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا: العدد 7، 1990 ص 49.

[12] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 110.

شهادة، فهذه الشهادة ليست حقا من حقوقه وإنما هي منحة ينعم بها عليه، [illegible] ذكي واع وأبدى رغبة في صورة اهتمام علمي كالهندسة أو الآلة المتحركة فإن ثمن الإدانة كبير، وكل وسائل التحطيم ستشمله حتى تشل نشاطه، فتشل بذلك الحياة الفكرية والثقافية[13]. ولعل فصولا كثيرة من مذكرات شاهد للقرن تقدم نماذج تطبيقية وتعكس تجربة مالك بن نبي الخاصة وما عاناه كواحد من أبناء المستعمرات (حتمية مزاولته لتكوين يتخرج بعده عدلا بدل أن يكون طبيبا أو محاميا مثل نظرائه من الفرنسيين، عدم قبوله طالبا في معهد الدراسات الشرقية رغم كونه يتوفر على الشروط اللازمة...إلخ).

في الميدان الديني

على الرغم من أن هذا الميدان يعد من ألصق وأخص الأمور التي تتصل بالحياة الشخصية للفرد، فإن المستعمر يسلط عليه كل قواه ويفرض عليه رقابته، فيتدخل مثلا في تعيين الإمام والمفتي...لا بمشيئة الأفراد ولكن تبعا لهوى المستعمر، وغاية ذلك كله أن يجعل من الدين صورة عجيبة من حياة أصحابه المستعمَرين[14]. وتجربة الجزائر مع الاستعمار الفرنسي أصدق دليل على ما يمارسه الاستعمار الاستبدادي الاستيطاني في هذا الإطار. فالمجتمع الجزائري يعد أبرز أنموذج لتلك المجتمعات التي تعرضت لأقسى درجات السحق والتهميش الثقافي والحضاري طيلة مدة تربو على قرن من الزمان، وإن لم توفق الاستراتيجية الاستعمارية في القضاء الكلي على روح المجتمع الجزائري، فإنها قد نجحت في تضييق وحسر مجالات تأثير الدين في مناشط الحياة الاجتماعية، فبعد أن كان الإسلام هو المحرك الأساسي لمجمل الحياة في مختلف مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية.. إبان مرحلة ما قبل الاستعمار، تم تعويضه ليحل محله القانون الفرنسي، وبقيت مساحة ضيقة من الحياة الإسلامية فقط تخضع

[illegible] المرجع نفسه، ص 114، وأيضا: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 147، وأيضا: مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص [illegible] الإسلام.

[illegible] مالك بن نبي في مذكراته الذي للقرن (الطفل والطالب).

[illegible] الذي واجهه الإسلام في [illegible].

للشرع الإسلامي هي مساحة الأحوال الشخصية، ورغم ذلك لم تمل السلطة الفرنسية من التضييق عليها وفتح الباب للاحتكام إلى الكود (Le code) الفرنسي.

بالإضافة إلى ذلك غذت السلطة الاستعمارية في نطاق الحياة الروحية للمجتمع الجزائري بعض السلوكيات والميول والاتجاهات الدينية السلبية الموروثة من عصر ما بعد الموحدين، كاتجاهات التصوف والطرقية المنحرفة، وشملتها بالرعاية، واتخذتها إلى جانب جهود موازية من مشاريع التثقيف على الطريقة الفرنسية كأبرز أدواتها لترسيخ سيطرتها ووجودها، دون أن تنسى محاربتها وتحجيرها وتضييقها على العلماء والمصلحين[15].

في الميدان الاقتصادي

لقد كان دور المستعمر في هذا الميدان خطيرا لأنه هدم المقومات الأساسية التي ينبني عليها أي إقلاع حضاري، فالاستعمار الإنجليزي في مصر مثلا، قضى على تلك الحركة النهضوية والتجديدية التي انطلقت في عصر محمد علي باشا، والتي استكملها من بعده الخديوي إسماعيل والتي كانت من الممكن لو لقيت الدعم أن تنقل مصر الحديثة نقلة نوعية على طريق النهضة والحداثة.

ويتوسع مالك بن نبي أكثر في دراسة الدور التعطيلي الذي مارسه الاستعمار الفرنسي-كأنموذج للاستعمار الاستبدادي- على تطور المجتمع الجزائري وعلى بنيته الاقتصادية؛ حيث لم ينخفض قرن من الحياة المشتركة بين الشعبين الفرنسي والجزائري من التخلف بل زاد فيه، وهنا يشير إلى أننا "لو اتخذنا سنة 1830 نقطة بداية لتاريخ التطور الاجتماعي بفرنسا والجزائر لرأينا أن التطور لم يسر في البلدين في اتجاه واحد. إننا نلاحظ أولا في بداية هذا التطور-أي عندما لم يكن النمو العلمي والصناعي قد أثر في الحياة الاجتماعية- فهنا نجد مستوى المعيشة للشعبين متساويا وربما وجدنا الشعب الجزائري يتمتع بيسر مادي أكثر من الشعب الفرنسي، فقد كان الإنتاج الزراعي متوافرا نسبيا في الجزائر أكثر من فرنسا...ولكن سرعان ما وضع الاستعمار يده على كل الثمرات التي ينتجها

---

[15] الطاهر سعود، "واقع التدين في المجتمع الجزائري" مجلة الإحياء ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، العدد الثامن، 2004.

التراب الجزائري...ومهما يكن فقد كان في استطاعة الشعب الجزائري سنة 1830 (رغم كل ما سبق) على الأقل أن يقتفي خطوات الشعب الفرنسي، عبر قرن البخار والكهرباء، بينما نرى في نهاية الأمر أن الشعب الفرنسي يصل وحده إلى عتبة العهد الذري، ونجد الشعب الجزائري في قافلة المتخلفين، بعيدا عن جبهة التطور العالمي لم يخرج بعد من مرحلة الأمية"[16].

لقد مارس الاستعمار مفعولا تعطيليا، عطل التطور على صعيد المجتمع الجزائري وأسلمه إلى تخلف أكثر، فقد انطلق الشعب الفرنسي إلى الأمام بينما رجع الأول إلى الخلف. ويذهب مالك بن نبي في تحليلاته إلى مدى أبعد عندما يعتبر التغيرات التي حصلت في أوربا من ارتفاع في مستوى المعيشة والمستوى الثقافي، بالإضافة إلى الانتصارات التي حققتها الحركات النقابية والعمالية...على أنها نتائج لعملية التوسع الاستعماري وخلاصة من نتائجه، ويعزز هذا الاتجاه بقوله" كل هذه العوامل تحققت بعد نزول الاحتلال برأس سيدي فرج، أي بعد حدث يعد رئيسيا سواء بالنسبة للشعب الجزائري أم الشعب الفرنسي الذي سيجد نفسه مندفعا في تيار التعجيل بالوسائل العلمية والصناعية، ومن بينها الوسائل التي حصل عليها باحتلال الجزائر، في الوقت الذي سيجد الشعب الجزائري نفسه محروما من تلك الوسائل، وبسببها محروما من العلم والصناعة"[17].

فكأن التطور الحاصل في المركز (Le centre فرنسا) قد عطل نمو المحيط (Le périphérique الجزائر) نتيجة استنزافه لفائضة الاقتصادي، وحجره على موارده لحساب المستعمر. فالتخلف الذي نشاهده اليوم في تطور الشعب الجزائري-يؤكد مالك بن نبي- ما هو إلا نتيجة هذا الاستعمار، بعد أن نأخذ في الحسبان الأسباب الداخلية التي تعود إلى القابلية له.

---

[16] مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص ص 41-42.

[17] نفسه، ص 46.

إدارة الاستعمار لعملية الصراع الفكري

يتجه مالك بن نبي في دراسته للاستعمار اتجاها جديدا حينما يركز على الآليات التي يستخدمها الاستعمار في إدارة عمليات الصراع الفكري والحرب المفهومية، عندما تصبح الفكرة محور المعركة، وهنا يتوسع مفهوم الاستعمار ليشمل القوى السياسية والاقتصادية والفكرية الموجودة على نطاق إقليمي أو عالمي، وتصارع لأجل مصالحها بأن تكف كل جهد فكري أو جهد نهضوي، يهدد أهدافها ومصالحها الإستراتيجية، فالصراع الفكري على هذا "هو وسيلة أو نسق من الوسائل يستعملها شعب أو مجموعة من الشعوب، للحط من قيمة أفكار الخصم أو لإبطال مفعولها أو لتحويلها عن الهدف المنشود، أو لتعفينها أو لشلها أو لإدماجها أو لعزلها عن الجمهور عزلا تاما أو جزئيا"[18].

وهذا النسق القديم- الجديد في عمليات الصراع، هو الذي يتخذ اليوم شكلا أكثر بروزا على الصعيد العالمي بعد أن صفي الشكل التقليدي للاستعمار، وقد اهتم به مالك بن نبي اهتماما بالغا عندما خصه بدراسة كاملة في كتابه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة؛ حيث قدم تحليلا وافيا مبنيا على تجارب واقعية للأساليب والطرق التخريبية التي يمارسها الاستعمار ومخابر الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ضد أفكارنا. فالاستعمار في خطته الإستراتيجية يحسب حسابا لكل أقواله وأعماله، وإذا برزت قوى معاكسة له في الاتجاه وتريد أن تنفلت من سيطرته لتحقق لنفسها الاستقلالية معتمدة على إمكاناتها وعبقريتها، فإنه يعمد إلى هذه القوى التي تناهضه وتحت أي راية تجمعت ويحول بينها وبين أن تتجمع تحت راية أكثر فعالية، فهو يطبق في ذلك استراتيجيات محكمة و هي إستراتيجية التعرف: حينما يجمع الاستعمار ومخابره الفاعلة معلومات عن القوى المناهضة له. وإستراتيجية التوجيه: حيث يعمد إلى خطوة أخرى هي توجيه هذه القوى إما بالتشتيت أو الكف أو التحطيم.

[18] عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1 ، باتنة، دار الشهاب، 1984، ص 11.

وتنطلق مخابر الصراع الفكري في حركتها من مبدأين أساسين هما مبدأ الغموض ومبدأ الفعالية. الأول يقتضي أن لا يكشف الاستعمار عن نفسه بأنه الموجه لهذه العمليات حتى وإن اقتضته الضرورة إلى ذلك. ومبدأ الفعالية ويقوم على عزل المكافح (سواء كان فردا، أم مجموعة، أم دولة...) في جبهة الصراع الفكري عن حلبة الصراع عن طريق[19]:

1- تنفير الرأي العام من أفكاره بجميع الوسائل الصالحة لذلك، كالمال والإعلام...

2- أن ينفره هو نفسه من القضية التي يكافح لأجلها بأن يشعره بعبث كفاحه.

وحينما تكون الظروف والأحداث وحدة الكفاح الشاملة ضد الاستعمار (كأن يكون مؤتمرا كمؤتمر باندونغ مثلا تتجمع فيه الشعوب الآفرو-آسيوية وتناضل فيه نضالا مشتركا لتحقق لنفسها مكانا على خريطة الوجود العالمي)، فإننا نرى هذا الأخير (الاستعمار) يشرع في انتقاء الآليات الفعالة المكافئة والكفيلة بتمزيق هذه الوحدة الشاملة، وتفكيكها إلى وحدات كفاح جزئية حتى يحدث الخلاف والتنافس بين القوى التي تقاومه، فتنحرف بذلك المعركة من معركة بين قوى الشعب أو الشعوب المتحدة والاستعمار، إلى معركة بين القوى الشعبية ذاتها كما وقع في كوريا، والصين، والهند بعد التقسيم...

أهداف عملية الصراع الفكري

إن المبادئ السابقة إذا ما نجحت مخابر الصراع الفكري في تحقيقها ضمن خططها الحربية على جبهة الأفكار كفيلة بأن تحقق للاستعمار هدفين أساسيين هما التحطيط من المستوى الروحي أو الأيديولوجي الذي تكون فيه المعركة ضده وتشتيت القوى الموجودة في المعركة[20].

إن التحطيط من المستوى الروحي أو الأيديولوجي للمعركة يتحقق عندما يسعى الاستعمار بما له من وسائط وأساليب إلى تفتيت المعركة الكلية التي تشن ضده إلى وحدات

---

[19] مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط 3، الجزائر، دار الفكر، 1988، ص 38.

[20] المرجع نفسه، ص 41.

جزئية، وهنا تفقد من معنوياتها (أي المعركة) وشيئا من قداستها في نظر الجماهير، فتصاب بالتدهور والانحطاط الأيديولوجي. وحالما يحدث هذا الانحطاط فإن القوى المكافحة تتبدد.

لذلك فالاستعمار ومخابر الصراع الفكري لا تكف عن اجتذاب الخصوم المتحالفين إلى أهداف وهمية أو شبه حقيقية تفصم بها تلك الوحدة الشاملة، وتضرب قوتهم المناهضة، فالاستعمار هو بطل الألعاب الإسبانية عندما يلوح لأعدائه بأفكار (تشبه قطعة القماش الأحمر التي تثير الثور فيزداد هجومه عليها، بينما المصارع يطعنه كل مرة حتى تنهك قواه) تفرغ إمكاناتهم وتدمر طاقاتهم.

لقد حاول مالك بن نبي من جهة أخرى ومن خلال تتبعه لآليات الصراع الفكري، بيان كيف يركب الاختصاصيون المشرفون على الصراع الفكري، أجهزة خاصة لتحطيم الأفكار كما يركب العلماء المختصون في علم المواد المشعة أجهزة لتحطيم الذرة، وحدد:

الجانب السلبي في عمليات الصراع: أي الكيفيات التي يرسم بها الاستعمار خطته كي يحطم أفكارا معينة، أو يسد أمامها الطريق حتى لا تصل إلى وعي الجماهير. وحدد أيضا:

الجانب الإيجابي منه (في عمليات الصراع): أي كيف يخلق الاستعمار الأفكار المناسبة لمصالحه وكيف يغذيها في وعي الجماهير ويروجها في أسواق السياسة العاطفية.

خلاصة

تبعا لما سبق يتضح لنا أن مالك بن نبي وإن كان قد اشترك مع بعض المفكرين في دراسته لبعض الجوانب ذات الصلة بالظاهرة الاستعمارية وتقاطع معهم فيها، مثلما هو الحال في نظرته للدور المزدوج الذي يلعبه الاستعمار في حياة الشعوب التي يفد عليها والذي تقاطع فيه مع كارل ماركس*، إلا أن لدراساته بعض أوجه التميز والفرادة خاصة فيما تعلق بدور

* لا ندري إن كان مالك بن نبي قد اقتبس هذا الرأي من كارل ماركس أم لا، فالرؤية تصل في تقاربها وتقاطعها حد التشابه وإن اختلف المضمون بعض الشيء.

إن تحليلات كارل ماركس عن المجتمعات غير الغربية -وإن كانت قليلة ومتناثرة- بينت مدى تأثير الرأسمالية على الأبنية الاجتماعية للدول المتخلفة، والدور الثوري ذي الطبيعة المزدوجة الذي تمارسه (خاصة في نموذج الاحتلال البريطاني للهند الذي استند إليه) من خلال عمليات التحطيم والتجديد، التحطيم لدعائم المجتمع الآسيوي القديم، والتجديد بوضعها الأسس الحقيقية لمجتمع حديث. لقد أكد كارل ماركس عبر هذا النموذج (البريطاني-الهندي) على الأثر التقدمي للتوسع الرأسمالي

الاستعمار في ساحة الأفكار، فالتحليلات التي قدمها تبدو متميزة وذات صلة وثيقة بما استجد في ساحة العالم المعاصر، فالشكل القديم للاستعمار قد توارى أو يكاد، بيد أنه قد ترك مكانه لشكل جديد لا يستخدم سلاح البندقية والرصاص وإنما يستخدم سلاح الأفكار، فميدان الأفكار هو ساحة المعركة الجديدة.

المجتمعات غير الرأسمالية ودوره في تنمية الرأسمالية الصناعية الأكثر إنتاجا في هذه المناطق؛ أي أن الرأسمالية تساعد -بالرغم من طابع السلب والاستغلال الذي ستمارسه على هذه المجتمعات- في إيجاد مجتمع جديد أكثر إنتاجية، يقوم على أنقاض المجتمع السابق للرأسمالية القديم.